الخطاب التفسيري واستراتيجية الفهم
من انتخاب اللفظ إلى إنتاج المعنى

د. خديجة عنيشل
جامعة قاصدي مرباح ورقلة

مِهاد لغوي:

هيأ الله سبحانه وتعالى أمةَ العرب لتكون حاضنةَ كتابه الكريم، الذي اصطفى له من بين كل الألسن اللسانَ العربيَّ المبين؛ فالقرآنُ نزل بلسانٍ أبانَ المعانيَ السماويةَ بألفاظٍ أعجزتِ العربَ والعجمَ على أن يأتوا بمثلها، بل وأعجزهم القرآنُ على مرّ الزمان أن يزيحوا لفظاً ويضعوا مكانه لفظاً آخرَ، بالرغم أن النصَّ القرآني سار على مذهبِ العرب في كلامها، فما من لفظةٍ إلا وتحملُ في أحشائها المعنى العربيَّ الذي أنتجتهُ البيئةُ العربيةُ وتواطأ عليه العربُ مذ نشأت لغتُهم.

إن اختيارَ العربية لساناً للمعاني السماوية كان في حدِّ ذاتهِ إرادةً إلهيةً لتشكيلِ العالم من جديد، وبناء وعيٍ مختلفٍ يقوم على التوحيد. ولذلك فإن أبرزَ ما يواجهُ متلقي الخطاب القرآني هو تلك الأسئلة الجوهرية حول سرِّ اصطفاء القرآن لألفاظه، و إمكانية قراءة الخطاب القرآني وفق منهجٍ تدبُّريٍّ يقوم على قراءة اللفظ انطلاقاً من مقعده المعجمي، وتموضعه ضمن شبكة المقول العربي الأصيل. وبصيغة السؤال: هل يمكن قراءةُ النص القرآني في ضوءِ منهجٍ لغويٍّ ينطلق من وضع اللفظ ضمن إطاره المعجمي الاشتقاقي أولا، ومنه إلى الإطار السياقي؟ وهل الدلالات الكامنة خلف اللفظ القرآني والتي تُستمدُّ بالأساس من البنيات الاشتقاقية له تقدمُ جمالياتٍ بلاغيةٍ ما؟

وكيف يُكسبُ توسُّعُ الحركة الاشتقاقية للفظ معانيَ جديدةً، وانطباعاتٍ دلاليةً لم تكن ظاهرةً على سطح الخطاب؟ وهل يمكن الاستعانة بالاشتجار الاشتقاقي للفظ القرآني بغيةَ فهم معاني القرآن الكريم؟

لقد أتاحت لي تنشئتي معرفةَ وقراءةَ معظم تفاسير القرآن الكريم، كما وفَّر لي تكويني الأكاديمي معرفةَ الكثير من مناهج التفسير، ووقفتُ عند مسألةٍ كانت تمثل لي هاجساً كلما انتصرتُ للمنهج التدبُّري اللفظي، ولا أريدُ بها طَوْلا ولا تجاسراً، ولكنني أقتنعُ علميا بها؛ ومفادها أن هذه المناهج والتفاسير –وبخاصة اللغوية منها– غرقت في الدائرة المغلقة للنظام الاستعَاري، الذي هيمن على الدرسِ البلاغي العربي، وكرّست فهمَ النص القرآني في ضوء المنهج البياني، الذي أغفل إلى حدٍّ بعيد جداً جوهرَ البناء الجُمَلي للخطاب القرآني ألا وهو الكلمة، الأمر الذي حالَ بين هذه المناهج وبين تساؤلٍ جوهريٍّ مشروع: ما السرُّ البلاغي في اختيارِ اللسان القرآني لألفاظٍ دون أخرى للتعبير عن موضوعٍ معين؟ هذا التساؤل في نظري يجعلنا نفهمُ أنْ ليس كلُّ لفظٍ في النص القرآني مثل لفظٍ آخر، بل إن كلَّ لفظٍ يتمتعُ بخصوصيةٍ دلالية ما، ينبغي أن يُبحث فيها بعمق وينفذَ إلى جوهرها لاكتشاف بعضِ جمالياتِ العبارة القرآنية، وبعضاً من إعجازِ اللفظ القرآني، فمثلما للجملةِ العربيةِ جمالٌ يبحثُ فيه علمُ الأسلوب والبيان والبلاغة.. فكذلك اللفظُ العربي له جمالُهُ التعبيري، وبراعته الأدائية، وإعجازُهُ الاختياري، التي تتبدَّى جميعُها في بنية نظامه الصرفي وتموضعه المعجمي. وهذا النمط من التحليل اللغوي يكتسبُ مصداقيتَه وأهميتَه من كونه ينطلقُ من اللبنة الأساسية في تكوين النص القرآني ألا وهي الكلمة، كما أنه يتكئُ على نظامٍ واضحٍ يتأسسُ على المرجعيةِ التراثية، التي توفرُ الشروط الموضوعية للقراءة المثلى للخطاب، والفهم المستقيم للمعنى، لما توفره من

مخزون لفظيٍّ أصيلٍ للعرب، حيث جُمعت وصُنفت في زمن النقاء اللغوي، وضمَّت كماً هائلاً من المقول العربي الأصيل، الذي تلفظَ به العربُ زمنَ سليقتهم وفطرتهم.

مفهوم التدبر في القرآن الكريم:

إن المعنى في الخطاب القرآني يتميزُ بخصيصةٍ مهمة، تحقق للنص القرآني كلَّه بُعْدَهُ اللانهائي، وتجعل القرآن الكريم لا يخلق من كثرة الرد. هذه الخصيصة هي الانفتاح انفتاحُ المعنى.

ولأجل هذه الميزة، أسَّس النصُّ القرآني منذ نزوله لمفهوم **"القراءة "**، باعتبارها فعلَ التلقي الأول﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ العلق:1. ولم يكتف بذلك فقط، بل ربط القراءةَ بمسألةٍ تضاهيها خطورةً ألا وهي **"التدبُّر"**؛ إذ جعل التدبر والتذكر هدفاً وغايةً لنزول القرآن، قال تعالى﴿ليدبروا آياته﴾ ولعل هذه الخطورة التي يكتسيها مفهوم التدبر للنص القرآني، وعلاقة ذلك بفهم آلية عمل الكلمة في الخطاب القرآني، تجعل من المحتّم أن نفهم جوهر التدبر ومعناه، انطلاقا من حضور المصطلح داخل الآيات التي ورد فيها وهي أربع آيات في القرآن الكريم:

- ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ النساء:82
- ﴿أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يات آباءهم الاولين﴾ المؤمنون: 68
- ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ﴾ص: 29
- ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ محمد: 24

إن المتأملَ في حضورِ المصطلح داخل الآيات، يرى أنَّ التدبرَ يرتبطُ بالنص (القرآن/القول/الكتاب)؛ أي يرتبط بكلام الله تعالى، وهذا يقوّي

الحُجَّـةَ في أن التدبر سلوكٌ لغويٌ واجبُ الحدوث لمن توفرت فيه أسبابُ النظر والتبين، لأنه يمثلُ في المنظور القرآني واحداً من إجراءات المنهج الرباني، الذي ارتضاه الله تعالى للناس كي ينتقلوا من مستوى الشك إلى مستوى اليقين، والفهم الصحيح.

القرآن لم يأمر بالتدبر فحسب، بل عاتب في سياق توبيخي الذين يتلقون النص ولا يتدبرونه ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ قال أبو حيان في تفسيره: "وهذا استفهام معناه الإنكار أي: أفلا يتأملون ما نزل عليك من الوحي ولا يعرضون عنه، فإنه في تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره ولا يظهر ذلك لمن أعرض عنه ولم يتأمله" [1]

لقد عادل القرآنُ بين عدم التدبر وانغلاق القلب؛ لأن طريق النص إلى القلب هو التدبر، الذي يعني الوصول إلى ماوراء الخطاب لمعرفة أسراره، فكشفُ خبايا القول لا يتأتى إلا بهتك حُجُب النصِّ، واحداً تلو الآخر، وكلما غُصنا في النص القرآني أكثر، كلما منحَنا فهماً أعمق؛ يقول ابن عاشور في تفسيره:"والتدبر: التفكر والتأمل الذي يبلغ به صاحبُهُ معرفة المراد من المعاني، وإنما يكون ذلك في كلامٍ قليلِ اللفظ، كثير المعاني التي أُودعت فيه، بحيث كلما ازداد المتدبرُ تدبراً انكشفت له معانٍ لم تكن بادية له بادئ النظر" [2]

---

1 أبو حيان النحوي الأندلسي – محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان – (ت: 745هـ)، البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1، 1422هـ/ 2001م، ج:3، ص:317

[2] ابن عاشور– محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي – (ت: 1393هـ)، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط:1، 1420هـ/ 2000م، ج:23، ص:148

ولهذا كان القرآنُ حريصا على حضِّ متبعيه أن يتدبروه ويحرثوه، حتى تتبين لهم معانيه وتنكشف أسرارُه، فقد أُثر عن ابن عباس قوله:"احرثوا هذا القرآن" [1] وهي دعوةٌ صريحة لضرورة فهم القرآن عن طريق تثويره؛ وذلك بالتأمل في آيهِ، وتدبر ألفاظه، وفهم معانيه. وليس التدبرُ سوى الرجوع إلى ما وراء اللفظ، وإلى جذور الكلم المفرد، وهذا المعنى يحملُهُ جذر كلمة (التدبر)؛ جاء في مقاييس اللغة لابن فارس:" الدَّالُ وَالْبَاءُ وَالرَّاءُ. أَصْلُ هَذَا الْبَابِ أَنَّ جُلَّهُ فِي قِيَاسٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ آخِرُ الشَّيْءِ وَخَلْفُهُ خِلَافُ قُبُلِهِ" [2]

قال الفيروزبادي:" والتَّدْبِيرُ: النَّظَرُ فِي عاقِبَةِ الأَمْر، أَي إِلى مَا يَؤُول إِليه عاقِبَتُه (كالتَّدَبُّر) . وَقيل: التَّدَبُّر التَّفكُّر أَي تَحْصِيل المَعْرِفَتَيْنِ لتَحْصِيل مَعْرِفةٍ ثالِثَة، ويُقَال عَرَف الأَمرَ تَدَبُّراً، أَي بأَخَرَةٍ. قَالَ جَرِير [3]:

وَلَا تَتَّقُـون الشَّرَّ حتَّى يُصِيبَكُمْ وَلَا تَعْرِفـون الأَمرَ إِلاَّ تَدَبُّـرَا" [4]

جاء في العين:" واستَدبَر من أمره ما لم يكن استَقْبَل، أي نظر فيه مُستَدبِراً فعرف ما عاقبة ما لم يعرف من صدره" [1]

---

[1] ابن الأثير –أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، (ت: 606 هـ)، النهاية في غريب الأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، 1399هـ/ 1979م، ج:1، ص: 927،

[2] ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1، 1420هـ/ 1999م، مادة (دبر)

3 جرير– ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق: د نعمان محمد أمين طه, دار المعارف, مصر، ط:3، ج:1، ص:479

[4] الفيروزابادي – مجد الدين محمد بن يعقوب – (ت:817هـ)، القاموس المحيط، تحقيق: الشيخ أبو الوفا نصر الحوريني المصري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:2، 1428هـ/ 2007م، مادة (دبر)

والتدبر مصدرُ الفعل المزيد المضعف تدبَّرَ، أصلُهُ دَبَرَ وزيدت الباء للتكثير، ثم زيدت الياء للتكلف فصار تدبَّـر، وهذا المعنى الصرفي يسير بنا إلى المعنى اللغوي الذي يفيد بأن التدبر عملٌ محوجٌ إلى مزيدٍ من القراءة التي تفضي إلى التأمل، وتكلُّف ذلك حتى يحصل للمفسر مراده، وهو بيان المعاني الخفية، والدلائل المستترة.

إن إقرارَنا بمبدأ التدبر، يقتضي الإقرارَ بأن الكلمةَ قبل أن تدخل في السياق تتنافسُ مع كلماتٍ أخرى تترابط معها ظاهريا على مستوى الدلالة، ولكنها تتفارقُ من حيث المعطى المعجمي، فالكلمةُ تمتلكُ قوةَ الفعل الدلالي، التي تجعلها تنتجُ المعنى الذي تختزنهُ أياً كانت الكلمات التي تجاورها، هذا يعني أن هنالك فعلاً للكلمة، وهنالك أثراً للسياق. وبدون فهم قوة الفعل لدى الكلمة، لا يمكن أن نستجيبَ لتأثير السياق.

إن المنهج التدبري في فهم وتحليل الخطاب القرآني ليبدو في نظري أنسبَ المناهج لتفسير القرآن، وفهم معانيه، لأنه ينطلق من مركزية اللفظ القرآني، وهذا ليس انتصاراً للفظ، ولا تأخيراً لدور المعنى، ولكنه مراعاةٌ طبيعيةٌ لأوَّليةِ التشكيل النصي، الذي يبدأ باصطفاء الكلمة المناسبة للسياق الحقيق بها. ثم إن القرآنَ نزل بين ظهراني أمةٍ سوقُها الكلام، وبضاعتُها المعنى، يدركون بسليقتهم تلك العلاقة الحميمة بين اللفظ والمعنى الذي عليه يدلُّ، وكان الشعراءُ يعيَّرون إذا ما اختاروا في نصوصهم الشعرية ألفاظاً لا تناسبُ معانيهم التي إليها يرمون.

---

1 الفراهيدي –أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد – (ت:173ه)، العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، مادة (دبر)

إن فهم العرب لقيمة اللفظ جزء من سليقتهم وفطرتهم، كما قال ابن جني:"اعلم أنه لما كانت الألفاظ للمعاني أزمَّة، وعليها أدلة، وإليها موصِّلة، وعلى المراد منها محصِّلة عنيت العرب بها، فأولتها صدرا صالحا من تثقيفها وإصلاحها" [1]، وإن إدراكهم للبعد الدلالي للَّفظ ناتج عن فهمهم لطبيعة وجود اللفظ داخل البناءين الجُمَلي واللغوي معا وليس أدل على ذلك من أن الدراسات العربية القديمة باختلاف موضوعاتها أدبية دينية،اجتماعية.. تطورت نوعيا في فهم جوهر اللغة؛ إذ تطلبت طبيعة هذه الدراسات أن يُعاد النظر في دراسة اللغة وفق حالاتها من نشأة، وتطور دلالات، وما يرتبط بها من تحولات على المستوى الاجتماعي. وترتب عن إعادة النظر هذه فهمٌ جديدٌ لجوهر المعنى والمضمون، هذا التطور في الفهم فجر ميلاد العديد من النظريات اللسانية والبلاغية.... اختلفت في رؤيتها للقديم والجديد، للفظ والمعنى، واختلف من ثم النقاد في رؤيتهم للأطراف المتباينة؛ فراحوا يرجحون كفة هذا على كفة ذاك، وينتصرون لهذا على ذاك [2]

إن الكلمة العربية تكتسي أهميتها من كونها ذات طبيعة مشتقة تمثلها الصيغُ الصرفيةُ المختلفة التي تكون عليها، وسمة الاشتقاق هذه، هي التي تُحول الكلمة من معناها الإفرادي الذي يُطلعنا عليه المعجم إلى معناها – بل معانيها – التركيبية التي تُنتجُها العلاقات الاشتقاقية

---

1 ابن جني –أو الفتح عثمان – (ت:392هـ)، الخصائص، تحقيق: د عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:2، 1424هـ/ 2003م، ج:1، ص:312،

2 يراجع: د السيد أحمد خليل، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1968م، ص: 104–105

بين الكلمات المتولدة من الأصول الثلاثية، وكذلك ما تحدده الصيغ الصرفية من معانٍ مختلفة، كمعنى الطلب الذي تدل عليه صيغة استفعل، ومعنى المطاوعة والتدريج... الخ.

اللغة القرآنية وآليات الاستعمال اللغوي:

وحين نتحدث عن اللغة القرآنية لا بد أن نشير إلى أن الخصيصة الإعجازية للنص القرآني، والتي تسمو به فوق أي نص بشري، وتؤسسُ للافتراق المطلق بينهما هي أن هذا النص السماوي لم يأتِ لزمانٍ معيـن ولا لظرف مخصوص، بل هو لكل زمان ومكان ومقولة فيرث [1] "كل نص يعتبر مكـوناً من مكـونات سياق ظرف معين" [2] التي يبني عليها التداوليون منهجهم التحليلي لا يُعتدُّ بها في مقاربة النص القرآني بأيِّ حالٍ من الأحوال؛ ذلك أن ألفاظ القرآن ليس فيها من صنعة البشر شيء، وإنما هي كلها من عند الله، وبالسبك الإلهي صارت لتلك الألفاظ بلاغةٌ لا منفذ فيها للطعن، ولا قِبَل للأناسي بها وإن كان بعضهم لبعض ظهيرا؛ يقول الخطابي في وصف بلاغة القرآن: "اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل على فصول الكلام موضعه الأخص والأشكل به؛ الذي إذا بُدِّلَ مكانه غيره جاء منه إما تبدل

---

1 جون روبرت فيرث (ت:1960م) من أعلام اللسانيات الاجتماعية ورائد النظرية السياقية الانجليزية، من مؤلفاته: نبذة عن النظرية اللغوية، الكلام، ألسنة الرجال ..

2 جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: د عباس صادق الوهاب، مراجعة: د يوئيل عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد. العراق، ط:1، 1987م، ص:215

في المعنى الذي يكون منه فساد الكلام وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها مترادفة متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب والأمر فيها وفي ترتيبها عند العلماء بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانتا تشتركان في بعضها" [1].

والخصيصةُ الإعجازيـةُ للغة القرآنيـة هي التي تجعـل من هذه اللغـة الاستثنـاء مفتوحةً-مكتملةً في آنٍ معاً، خلافا للغة الإنسانية التي "تظل باستمرار قاصرةً عن الاتحاد النهائي بماهية الأشياء والإنسان، ويظل يتبعها كظلها حاجزٌ من عدم الدقة النهائية أو عدم الاكتمال باعتبار تبعيتها للإنسان والطبيعة، وباعتبار انفصالها أيضا عنهما انفصالاً لا يمكن إلغاؤه، وإنما يمكن تقليلُ مساحته أو توسيعها طبقاً لطبيعة التطور في موازاة تطور اللغة ومواكبتها لحجم التغيرات الحاصلة في الحياة، وهنا تبدو الإشكالية لغويةً أو إيديولوجية بحكم اللغة، أو بحكم تبنٍّ لفهمٍ ما أو لموقف ما من المواقف الاجتماعية أو الفكرية" [2].

ونحن بإزاء النص القرآني يحق لنا أن نتساءل: هل راعى الخطاب السماوي شروط المتلقي الأرضي؟ وأولى هذه الشروط مراعاة استعمال

---

[1] الخطابي- أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم- (ت:388هـ)، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط:3، ص:29

[2] عبد الهادي عبد الرحمن، سلطة النص قراءات في توظيف النص الديني، دار سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربي، القاهرة بيروت لندن، ط:1، 1998م، ص:342-343

الكلمة التي نُظِم بها هذا الخطاب باعتبارٍ داخليٍّ هو كونه نصا لغويا بالأساس، وباعتبار خارجي كون اللغة العربية أقدر اللغات على البيان وإلا ما كان الله ليصطفيها دون غيرها كي تكون لسانه الذي نزل به إلى الأرض، وفي هذا يقول الشافعي: " فلما خصَّ سبحانه وتعالى اللسان العربيَّ بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقفة دونه" [1]

إننا نلحظ في المجالات الاصطلاحية أن الكلمات تكون مجبورةً على أن تأخذ معاني ثابتة متواطأ عليها، أما في النص السماوي فالكلمة ذاتها تدفعنا للتساؤل عن السر الكامن في جذرها اللغوي، وشبكة المعاني التي تتعالق معها.

إن القيمة الإعجازيةَ للنص القرآني إنما تُردُّ إلى ألفاظه التي تختزنُ المعاني الإلهية، وتعبر بالضرورة عن فهم المجتمع العربي الجاهلي للوجود، هذا المجتمع الذي اصطفاه الله تعالى من بين سائر شعوب الأرض ليكون محطَّ معجزته ومهبط وحيه، فجاءت كلُّ كلمةٍ في القرآن قاصدةً دالَّها ومدلولها في آنٍ معا، وبشكل تتمايز فيه كل كلمةٍ عما يمكن أن تكون مرادفةً لها في المعنى، وفي هذا السياق يقول الجاحظ: " قد يستخف الناسُ ألفاظاً ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يَذْكُر في القرآن الجوعَ إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر والناس لا يذكرون السَّغَب ويذكرون (الجوع) في موضع القدرة والسلامة، وكذلك ذكر (المطر) لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام،

[1] الشافعي– محمد بن إدريس– (ت:204هـ)، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار التراث، بيروت، لبنان، ط:2، 1399هـ ، ص:14

والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنّه إذا ذكرَ الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل (الأرضين)، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعاً، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر، وأولى بالاستعمال" [1]

والجاحظ يمثل هنا اتجاهاً أصيلا في البحث البلاغي عند العرب، الاتجاهُ الذي يقوم على الذائقة البلاغية، والحس اللغوي الرصين؛ الذي لا يمتلكُ ناصيتَه إلا من اقتدر على هذه اللغة المعجزة وخبرَ أسرارَها المكينة، وربط الصلة بينه وبين النص القرآنيِّ الذي نزل من فوق سبع سماوات بلسانٍ عربيٍّ مبين؛ فلغةُ القرآن الكريم بالفعل لم تستعمل لفظ (الجوع) فضلا عن معناه الشائع الذي هو عذابُ خواء البطن، إلا في سياق الحديث عن العذاب والعقاب المسلّط من رب السماء على أهل الأرض:

- ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت ءامنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ النحل:112

- ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع... ﴾ البقرة: 155

ولغةُ القران أيضاً وظفت لفظ المطر في سياق العذاب والبؤس، ولم يكن من معانيه معنى الخير العميم والغيث النازل من السماء كما درجت عليه لغة العامة:

[1] الجاحظ ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ج:1، ص:20

- ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوءأفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا﴾ الفرقان: 40
- ﴿وأمطرنا عليهم مطرا. فساء مطر المنذرين﴾ الشعراء: 173
- ﴿وأمطرنا عليهم مطرا. فساء مطر المنذرين﴾ النمل: 58
- ﴿وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ الأعراف: 84
- ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ هود:82
- ﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴾ الحجر: 74

ثالذي نلمسه في هذا الانتقاء العجيب وهذا التخصيص الغريب هو مواءمة النص القرآني لفكر الإنسان العربي؛ الذي قال قبل نزول القرآن: "مَطَرَ الرجلُ في الأرض مُطوراً، أي ذهب، وتَمَطَّرَ مثله، ويقال: ذهب البعيرُ فلا أدري من مَطَرَ به" [1] وقال ابن عباد: "ذَهَبَ فلا أدْري مَنْ مَطَرَ به: أي ذَهبَ به، من قَوْلِهم: مَطَرَ في الأرْضِ مُطُوْراً: أي ذَهَبَ، والمَطْرُ: العَدْوُ الشدِيْدُ، ومَطَرَ قِرْبَتَه: مَلأها، والمِطْرِيْرُ من النَسَاءِ: السَّلِيْطَةُ؛ لِمَطَرَاتِها للشَّر: أي سُرْعَتِها، وجَمْعُها مطارير " [2] والمطر في عرف العرب هو الماء ينسكب من السماء؛ لم يُقصد به الغيث الذي يُنبتُ الكلأ، بدليل أن فعل أمطر عند العرب لا بد فيه من تخصيص الخير ليدلَّ على إصابة الخير،

[1] الجوهري– إسماعيل بن حماد– (ت:393ه)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط:2، 1399هـ/ 1979م، مادة (مطر)

[2] ابن عباد ، المحيط في اللغة، مادة (مطر)

تقول العربُ:" مَطَرَنِي بخيرٍ: أصابَني، وما مُطِرَ منه خيراً وبخيرٍ، أي: ما أصابَهُ منه خيرٌ" [1].

والقرآنُ كلامُ الله تعالى لم يخرج على سمتِ العرب في كلامها، ولم يجترئ على سَنَنِ العربية؛ بل نزل من السماء بلسانٍ عربيٍّ يتبيَّنُهُ كلُّ أبناء جزيرة العرب، وكان العربيُّ في نهج كلامه ينتجُ مفرداته وفق تصوره للوجود، وبناءً على رؤيته للعالم من حوله، والعجيبُ أنه كان يمتلك مقدرةً انتقائيةً تفصيليةً لوضع دوالٍّ لغته إزاء مدلولاتها ففي فعل السحاب والمطر مثلاً تقول العربُ:" إذا أتتِ السماءُ بالمطر الخفيف قيل حَفَشت وَحَشَكَت، فإذا استمر مطرُها قيل: هطلت وهتنت، فإذا صبت الماء قيل: همعت وهضبت فإذا ارتفع صوت المطر قيل: اهطلَّت واستعلَّت، فإذا سال المطرُ بكثرة: قيل انسكب وانبعق، فإذا سال وركب بعضه بعضاً قيل: اثْعَنْجَر واثْعَنْجَجَ، فإذا دام أياماً لا يقلع، قيل: أنْجَمَ، وأغْبَطَ، وأدْجَنَ، فإذا أقلع، قيل: أنجَمَ، وأفصى" [2].

ويستغربُ الباحثُ في آلية الاستعمال اللغوي العربي الذي يتبدّى فيه سمتُ العرب المميز وطريقة كلامها؛ حدثنا عن ذلك الجاحظ قائلاً:"ونراهم يسمون الرجل جملاً ولا يسمونه بعيراً ولا يسمون المرأة ناقة، ويسمون الرجل ثوراً ولا يسمون المرأة بقرة ويسمون الرجل حماراً ولا يسمون المرأة أتانا، ويسمون المرأة نعجة ولا يسمونها شاة ولا يضعون

---

[1] الفيروزابادي، القاموس المحيط، مادة (مطر)

[2] الثعالبي – أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل – (ت:429هـ)، فقه اللغة، تحقيق: د جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422هـ – 2001م، ص:299

نعجة اسماً مقطوعاً، ويجعلون ذلك علامة مثل زيد وعمرو، ويسمون المرأة عنزا" [1]، وقد جارى الخطابُ القرآني هذا السنن واقتفى أثره ولم يشأ أن يخرج عنه وكان اللفظُ أساس هذه المجاراة ومبدؤُها إذ امتاز كما يرى الجاحظ " بكثير من الخصائص البلاغية الممتازة، فأول ذلك حسن انتقاء اللفظ، واستعمال ما هو أحق بالمعنى، وأولى بالاستعمال، فقد يشترك لفظان في معنى واحد ولكن أحدهما أدقُّ من الآخر في الدلالة وأدخلُ في المعنى وأقدر على التعبير عنه من اللفظ الآخر، وقد تغيبُ هذه الفروق الدقيقة بين الألفاظ المترادفة عن العامة وأكثر الخاصة، ولكن القرآن لا يتقيد بذلك، ولا يمكن أن تغيب عنه هذه الفروق" [2]

وهنا يكمن سرٌّ عظيمٌ من أسرار إعجازية العربية، وهو كونها وحيٌ من السماء وهبةٌ من الله لأمة العرب، وإلا فما سببُ اصطفائها من بين سائر الألسن لتكون لسان رب العالمين ورسالته لهداية الناس أجمعين؟؟ ولنا في هذا الموقف شاهدٌ مهم وهو رأي واحدٍ من أنبغ اللغويين الذين أرسوا لمعالم الدرس اللغوي العربي القديم، وهو ابن جني الذي يقول في الخصائص:" واعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع. فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي, مختلفةً جهات التغول على فكري. وذلك أنني إذا تأملتُ حالَ هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة, وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ما يملك على جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غَـلْوَة السحر، فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله ومنه ما حذوته على أمثلتهم ... وانضاف إلى ذلك واردُ الأخبار المأثورة

---

[1] الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ج:1، ص:212

[2] د. وليد قصاب، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس، دار الثقافة، الدوحة، 1405هـ/ 1985م، ص:73

بأنها من عند الله جل وعز فقوي في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه وأنها وحي" [1].

وإن كان هذا تبريرٌ شخصي لمسألة التوقيف والتواضع التي أسهب في بحثها الدارسون العرب مذ نشأة الدرس اللغوي العربي القديم، فلا شك أيضا أن اللغة العربية تمتاز بخاصيةٍ عجيبة في مواءمة الدوال بمدلولاتها، وهذا ليس محضَ انتصارٍ لقضيةٍ لغوية، بل هو تعليلٌ يعضده علم الاجتماع اللغوي؛ إذ يرى علماءُ الاجتماع " أن اللغة تجعل من الأمة الناطقة بها كلا متراصاً يخضع لقانون واحدٍ وأنها الرابطةُ الحقيقيةُ الوحيدة بين عالم الأذهان وعالم الأبدان، وهي نظريةٌ تصدقُ على لغتنا العربية، كما يقول الدكتور عثمان أمين أكثر مما تصدُقُ على أية لغةٍ أخرى، فاللغة العربية عظيمة الأثر في تكوين عقليتنا، وهداية سلوكنا، وتصريف أفعالنا، ذلك أنها تمتاز على اللغات الأخرى بمثاليةٍ عميقةٍ صريحة، تحسبُ حساب الفكرة والمثال وتضعهما موضع الصدارة والاعتبار.. أي أن لغتنا العربية تفترض دائماً أن شهادة الفكر أصدق من شهادة الحس ويكفي في التعبير بها إنشاء علاقة ذهنية بين المسند والمسند إليه، دون حاجة إلى فعل الكينونة الذي هو لازمة ضرورية في اللغات الهندوـ أوروبية ودون الحاجة إلى التصريح بضمير المتكلم أو المخاطب أو الغائب، لأن الذات متصلة دائما بالفعل في نفس تركيبه الأصلي" [2].

---

[1] ابن جني، الخصائص، تحقيق: د عبد الحميد الهنداوي، ج:1، ص:99

[2] أحمد محمد جمال، اللغة العربية لسانٌ وكيان، مجلة البحوث الإسلامية، الإصدار من رجب إلى رمضان، 1395هـ، العدد:1، ص:92

ليس هذا فحسب بل إن العربية شكلت على مر الزمان اللغةَ المثالية للمجتمع المسلم؛ التي يرجع إليها أفراده حين يبتغون فهمَ الآي المقدس، ويرومون إدراك الدلالات العقدية باختلاف مضامينها، لذلك كان ملجأُ المفسرين الوحيد هو لغة العرب، وكان حبر الإسلام ابن عباس يقول:" الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرفُ من القرآن، الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه" [1]، وقال أيضا:" إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب" [2].

وليس دقيقاً ما ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن حين قال:" إنما أُنزل القرآن بلسان عربي مبين، وتَصداق ذلك في آية من القرآن، وفي آية أخرى: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم... ﴾إبراهيم:4، فلم يحْتَجِ السلفُ ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسُن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص، وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب والمعاني" [3]،وكذلك مقولة ابن خلدون من "إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم،

---

[1] السيوطي- الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر- (ت:911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية، دط، دت، ج:1، ص:847

[2] نفسه ، ص:847-848

[3] أبو عبيدة – معمر بن المثنى التيمي – (ت:210هـ)، مجاز القرآن، تحقيق: محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج:1، ص:8

فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه" [1]، فالمصادر اللغوية تذكر أن من الصحابة من أشكل عليه فهمُ بعض مفردات القرآن، وأنهم لم يكونوا جميعهم بنفس درجة الفهم لكلمات النص القرآني، فمنهم من كان متمكّناً من لغته محيطاً بغريبها ومنهم من كان لا يمكنه ذلك، وهو أمر طبيعي، لأن اللغةَ لا يحيطُ بها شخصٌ مهما كانت مقدرته فائقةً وإمكاناته العقلية واسعة، فضلا على أن فهم القرآن " لا يتوقف على معرفة اللغة وحدها، بل لا بد لمن يفتش عن المعاني ويبحث عنها من أن تكـون له موهبة عقلية خاصة، تتناسب مع درجة الكتاب وقـوة تأليفه" [2].

والقرآنُ حين نزل لم يغير شيئا من لغة العرب، ولم يعمد إلى الألفاظ فغيرها، وإن كانت بعض الألفاظ تحولت دلالاتُها ولبست معانٍ جديدة، يقول عبد القاهر الجرجاني:" إن التنزيل كما لم يقلب اللغةَ في أوضاعها المفردة عن أصولها ولم يُخرج الألفاظَ عن دلالتها، وأن شيئا من ذلك إن زيد إليه ما لم يكن قبل الشرع يدل عليه، أو ضُمِّـن ما لم يتضمنه أُتبعَ ببيانٍ من عند النبي، وذلك كبيانه للصلاة والحج والزكاة والصوم، كذلك لم يقض بتبديل عادات أهلها ولم ينقلهم عن أساليبهم وطرقهم، ولم يمنعهم ما يتعارفونه من التشبيه والتمثيل والحذف والاتساع " [3]

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشدادي، نشرت بدعم وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي، الدار البيضاء، المغرب، ط:1، 2005م، ج: 5، ص:196

[2] د محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، مصر، د ط، د ت، ج:1، ص:29

[3] الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: هنري ريتر، مطبعة وزارة الأوقاف، استنبول، 1954م، ص:363

ولما كان نزول القرآن بلسان العرب ووفق سننهم كان لا بد من الرجوع إلى لغة المجتمع العربي آنئذٍ، كي نفهم نصوصهُ ونعقل ألفاظه، قال الشاطبي:" فإن قلنا إن القرآن نزل بلسان العرب وأنه عربيٌّ، وأنه لا عجمة فيه فبمعنى أنه أُنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها... فإذا كان كذلك فالقرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب فكما أن لسان الأعاجم لا يمكن أن يُفهم من جهة لسان العرب, فكذلك لا يمكن أن يُفهم لسان العرب من جهة لسان العجم لاختلاف الأوضاع والأساليب" [1].

يساعدُ المنهج اللفظي التدبري في فهم الخطابات الأكثر خصوصية وبخاصة تلك التي يعمد فيها القرآن إلى التكنية بوساطة الكلمات؛ ويعجبُ المتلقي للنص القرآني كيف يرسمُ القرآنُ ملامح العلاقة الجنسية مثلا باللفظ وحده حتى لا يدع مجالاً لنقصٍ يتراءى في ثنايا الخطاب، وهو خطابٌ حساس يلامسُ المشاعرَ الخاصة والحميمة بين الزوجين، فيعمد النصُّ الإلهي إلى التورية والكناية لأن المباشرة هنا خدشٌ للحياء، ولأنَّ موضوعَ الجنس لما كان مخبوءاً ينشأُ تحت اللُّحُـفِ، ويستمدُّ وَهَجَهُ من هذا الخِباء، كان الأنسبُ لصوغه الكنايةُ والاستعارةُ.. وسنمثلُ لذلك بلفظٍ واحد لضيق الوقت وهو لفظ الإفضاء

لفـظُ الإفضـاء:

نعتَ القرآنُ العمليةَ الجنسيةَ بين الزوجين بلفظٍ مميزٍ آخر هو "الإفضاء" قال تعالى: ﴿... **وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا** ﴾ النساء: 21

[1] الشاطبي – أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي- (ت:790هـ)، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: الشيخ عبد الله دراز، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ،ج:2، ص:103

ولفظُ الإفضاء بالتأكيد ليس هو المباشرة ولا التغشي ولا الرفث، هو لفظٌ مخصوص اصطفاهُ النصُّ القرآنيُّ في هذا الموضع بالذات لأنه أجدر من سائر الألفاظ الأخرى بهذا الموقع؛ فسياق الآية ينكر إنكاراً شديداً رجوع الزوج عن المهر الذي قدمه لزوجه في حال استبدالها بزوج أخرى، وعلل ذلك بعلة "الإفضاء" لعظيم هذه العلاقة وخطورة معناها؛ يقول أبو حيان في تفسيره:" وهذا الاستفهام على سبيل الإنكار، أي: أتفعلون هذا مع ظهور قبحه؟ وسمي بهتاناً لأنهم كانوا إذا أرادوا تطليق امرأة رموها بفاحشة حتى تخاف وتفتدي منه مهرها، فجاءت الآية على الأمر الغالب. وقيل: سمي بهتاناً لأنه كان فرض لها المهر واسترداده يدل على أنه يقول: لم أفرضه، وهذا بهتان. وانتصب بهتاناً وإثماً على أنهما مصدران في موضع الحال من الفاعل، التقدير: باهتين وآثمين. أو من المفعول التقدير: مبهتاً محيراً لشنعته وقبح الأحدونة، أو مفعولين من أجلهما أي: أتأخذونه لبهتانكم وإثمكم؟ وهذا استفهام إنكار أيضاً، أنكر أولاً الأخذ، ونبَّه على امتناع الأخذ بكونه بهتاناً وإثماً . وأنكر ثانياً حاله الأخذ، وأنها ليست مما يمكن أن يجامع حال الإفضاء، لأن الإفضاء وهو المباشرة والدنوّ الذي ما بعده دنو يقتضي أن لا يؤخذ معه شيء مما أعطاه الزوج، ثم عطف على الإفضاء أخذ النساء الميثاق الغليظ من الأزواج" [1]

ينطوي لفظ الإفضاء على دلالاتٍ مميزة تتواءمُ مع السياق الذي ورد فيه ومن ضمنها:

1- دلالةُ الزواج الموصل للجماع:

الإفضاءُ هو وصولُ الرجل إلى المرأة التي اختارها له القدرُ لتكون شريكةَ حياته، وحين تصير المرأةُ زوجاً لبعلها فإنها تنتقلُ من حيز الأبوة إلى حيز

[1] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج:3، ص:215-216

الزوجية، وتتحول من فضاء الأسرة إلى فضاء أرحب هو فضاء الزوج فتصيرُ في حوزته، جاء في التهذيب: "أفضى فلانٌ إلى فلان: إذا وصل إليه؛ وأصله أنه صار في فُرجته وفضائه" [1]

والإفضاءُ هو الجماعُ ووطأُ الرجل زوجَهُ؛ جاء في تفسير القرطبي:" قال ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم: الإفضاء في هذه الآية الجماع. قال ابن عباس: ولكن الله كريم يكنى. وأصل الإفضاء في اللغة المخالطة؛ ويقال للشيء المختلط: فضا. قال الشاعر:

فقلت لها يا عمتي لك ناقتي وتمر فضا في عيبتي وزبيب " [2]

وهذا المعنى تصدِّقهُ المعاجم أيضا يقول الأزهري في التهذيب:" أفضى الرجل: دخل على أهله، قال: وأفضى أيضا: إذا جامعها.. ويقال: أفضى الرجل جاريته: جامعها فصيَّر مسلكيها مسلكا واحداً، وهي المفضاة من النساء" [3]

2- دلالة اللمس:

أولُ الجماع اللمس. ويلتقي لفظ الإفضاء في هذا المعنى بهذه الدلالة التي تعبر في النص القرآني على الوطء كما قال تعالى: ﴿...أولامستم النساء..﴾ المائدة: 6، وآلةُ اللمس هي اليد: اليدُ الحانيةُ، اليدُ الذكيةُ، اليدُ التي تعرفُ من أين يؤتى الجسدُ ومن أين تتحققُ المتعةُ، وبالطبع فالخطاب القرآني لا يُفصِّلُ في هذه المسائل التي يصنعها الفراش، ولكنه مرةً أخرى يستخدمُ اللفظَ الدالَّ

---

1 الأزهري، تهذيب اللغة، مادة (فضا)

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج:5، ص:102

[3] الأزهري، تهذيب اللغة، مادة (فضا)

على ذلك ببراعة، تقول العربُ:"أفضى الساجدُ بيده إلى الأرض إذا مسها بباطن كفّه" [1] واللمسُ قد يفضي إلى الجماع وقد لا يفضي، ولكنه لا يكون إلا في خلوة؛ يقول الفيروزابادي:" أفْضَى المرأةَ: جَعَلَ مَسْلَكَيْها واحِداً فهي مُفْضَاةٌ و إليها: جامَعَها أو خَلاَ بها جامَعَ أم لا" [2] وفي المقاييس:" أفضَى الرّجُل إلى امرأته: باشَرَها. والمعنى فيه عندنا أنّه شُبّه مقدَّمُ جسمه بفَضاء، ومقدَّمُ جسمها بفضاء، فكأنه لاقَى فضاءَها بفضائه" [3]

والقرآنُ يصرُّ على التكنية في مثل هذه المواضيع الحساسة، فلا يعمد إلى القول أن الرجل والمرأة يكونان في خلوة بعيداً عن أعين الناس، ويدخلان في لحافٍ واحد ويمارسان الجنس بكل تفصيلاته، وإنما يوظف لفظ الإفضاء دون غيره من الألفاظ للدلالة على كل ذلك وهذا ما تقره التفاسير؛ يقول الرازي:" والقول الثاني: في الإفضاء أن يخلو بها وإن لم يجامعها، قال الكلبي: الإفضاء أن يكون معها في لحاف واحد، جامعها أو لم يجامعها، وهذا القول اختيار الفراء ومذهب أبي حنيفة رضي الله عنه" [4]

3- دلالةُ الاختلاط والمشاركة:

تحققُ الممارسةُ الجنسيةُ للزوجين حالةً من التماهي الحاد حيث يلتقي الجسدان والروحان لقاءً حميمياً تذوبُ فيه كل الاختلافات بينهما، لذلك يقرُّ المتخصصون أن الجماع حلٌّ لكثيرٍ من المشكلات الزوجية لو أُحسنَ فهمُ قيمته المعنوية والحسية، وما يجعلُ الحياةَ الزوجية لكثير من الأزواج لا تحسنُ الاستثمارَ في العلاقة الحميمة هو سوء الفهم لديهم تجاه هذه العلاقة المعقدة

---

[1] الزمخشري، أساس البلاغة، مادة (فضو)

[2] الفيروزابادي، القاموس المحيط، مادة (فضا)

[3] ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (فضي)

[4] الرازي، تفسيره، ج:5، ص:122

الممتعة؛ فيأتي على رأس فهمهم لها أنها مجرد موعد لإفراغ الشهوة الجنسية فقط، وهذا ما يحيدُ بتلك العلاقة من معانيها النفسية والجسدية المميزة إلى معنى مادي جاف لا أُفُق له.

إن الجنسَ يحقق للرجل والمرأة وَحدةً نفسية وجسديةً لا تتحقق في آنٍ واحدٍ إلا في فراش الزوجية، وفي معنى التخالط والامتزاج تقولُ العرب:" الفَضَا:الشيءُ المُخْتَلِطُ" [1] و"متاعُهُم فَضْوىً فَضاً أي مُخْتلِطٌ" [2] جاء في تفسير البحر المحيط:" وفي مثل الناس فوضى فضى أي: مختلطون، يباشر بعضهم بعضاً" [3]

ومن دلالات الاختلاط دلالةُ الشراكة والاهتمام المشترك قال ابن سيده:" أَمْرُهُم فوضا وفَوْضاه مُخْتَلطٌ عن اللِّحيانيِّ وقال معناه سَوَاءٌ بَيْنَهُم كما قال ذلك في فضاً ومَتاعُهُم فَوْضَى بينهم إذا كانوا فيه شُركاء ويقال أيضاً فَوْضَي فَضاً قال:

طَعامُهُم فَوْضَي فَضاً في رِحالِهِم ولا يَحْسَبُونَ السُّوءَ إلا تَنَادِيَا

وشَرِكةُ المُفَاوَضَةِ الشَّرِكةُ العامّةُ في كُلِّ شيءٍ، وتَفاوضُوا الحديثَ أخذُوا فيه" [4]

وفي التهذيب:" شارك فلان فلاناً شركة مفاوضة، وهو أن يكون مالهما جميعاً من كل شيء يملكانه بينهما.. وقال أبو زيد: القومُ فيضوضي فيما

---

1 الفيروزابادي، القاموس المحيط، مادة (فضا)

2 ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، مادة (فضو)

[3] أبو حيان، تفسير البحر المحيط، ج:3، ص:202

[4] ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، مادة (فضو)

بينهم: إذا كانوا مختلطين يلبسُ هذا ثـوب هذا، ويأكل هذا طعامَ هـذا، لا يؤامـرُ واحدٌ منهم صاحبَه فيما يفعل في أمره" [1]

ودلالة المشاركة التي تنبجس من ثنايا لفظ الإفضاء تسوقنا إلى مسألةٍ غايةٍ في الخطورة وهي أن يكون الجنسُ في المنظور الزوجي عملية تفاعلية، ومشاركة وجدانية بينهما، ومالم تحقق العملية الجنسية هذا المعنى الصميم فإنها تعتبر مجرد لقاء جسدي لا يؤتي ما يُرجى له من الثمر. وكثيراً ما تنشأ مشكلات جنسية خطيرة بين الزوجين لا يتداولان فيها ويناقشانها فتتفاقم إلى ما لا يحمد عقباه، فمعنى المشاركة هنا ضروريٌ إن في أثناء العملية الحميمة، أو في مناقشة ما يعرض لها من مشكلات قال ابن فارس:" الفَضَا مقصور: الشَّيئان يكونان في وعاء مختلطَين لا يُصَرُّ كلُّ واحدٍ منهما على حِدَة" [2]

4- دلالةُ الاتساع:

الإفضاءُ كفعلٍ جنسيٍّ هو عمليةُ خروجٍ من فضاءٍ ضيق لفضاء واسع، وسميت ليلةُ دخول الرجل على امرأته بليلة فض البكارة التي يتم فيها أيضا دخول المرأة لعالم الزواج الذي لن تكون بعده مثلما كانت قبلُ، جاء في البحر المحيط:" الإفضاءُ إلى الشيء: الوصول إلى فضاء منه، أي سعة غير محصورة. ... ويقال: فضاً يفضو فضاءً إذا اتسع" [3] وتَصداقُ ذلك من المعجم العربي؛

---

[1] الأزهري، تهذيب اللغة، مادة (فضا)

[2] ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (فضي)

[3] أبو حيان، تفسير البحر المحيط، ج:3، ص:202

جاء في المقاييس لابن فارس:"الفاء والضاد والحرف المعتلّ أصلٌ صحيح يدلُّ على انفساحٍ في شيء واتِّساع. من ذلك الفَضاء: المكان الواسِع. " [1]

ومن الدلالات التي أراها أساسيةً هاهنا، هو وجوبُ توفر فضاءٍ ملائمٍ يتسع لمتطلبات العملية الجنسية بين الزوجين، فبدون مساحةٍ تستوعبُ عملية الجماع كاملةً لا يمكن أن تتحقق المتعةُ لهما، ولا يمكن أن نتحدث عن ثمار التواصل الحميمي التي تظللُ الحياةَ الزوجيةَ فيما بعد، والواقعُ الاجتماعي يصدِّقُ ما نقوله هنا، فكم من أزواجٍ يعانون من ضيق مساكنهم، وعدم سعة غرف نومهم تجدهم يشتكون من أن اللقاء الجنسي عندهم منقوصٌ غيرُ كامل، ويتحول هذا الموعدُ المميز للزوجين إلى حالةِ إرباكٍ وقلق، تفضي بالجماع إلى مجرد قذفٍ سريع، وهذا يورِّثُ للزوجين كليهما توتراً نفسياً لا يُنكر. ثم إن المختصين في تأمين السكن للمجتمع لا بد أن يراعوا أن من شرائط المسكن هو توفير الأمن النفسي للفرد، فإذا حرمنا هذا الفرد من الفضاء الذي فيه يفضي لزوجه، أو قصَّرنا في حدودِ هذا الفضاء، فإن النتيجة لا محالةَ هي مواطنٌ غير مشبع، وغيرُ آمن على نفسيته!!

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

[1] ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (فضي)